تطور الاستراتيجية الامريكية في العراق ٢٠٠٣-٢٠٠٧

المدرس المساعد
طالب حسين حافظ(*)

المقدمة:

شكل قيام الولايات المتحدة الأمريكية بغزو واحتلال العراق في العام ٢٠٠٣ سابقة غير مألوفة في تاريخ العلاقات الدولية المعاصر . ولم يكن هذا الغزو وليد ساعته ، أو رد فعل لحدث طارئ أو تفويض من قبل الأمم المتحدة ، بل كان نتيجة لسياسات متراكمة متعاقبة وفقا لإستراتيجية أمريكية بعيدة المدى ، تمتد جذورها مع تأسيس دولة العراق المعاصر، ومن ثم بروز الولايات المتحدة كقطب أعظم بعد الحرب العالمية الثانية، يبحث عن نقاط ارتكاز عالمية تتمتع بمزايا إستراتيجية من حيث الموقع والثروات والتأثير.

ولقد تجلت هذه الإستراتيجية الأمريكية بفعلها المؤثر على الأرض من أجل تحقيق أهدافها بعيدة المدى في احتلال العراق ، مباشرة بعد قيام العراق بغزو الكويت في الثاني من آب ١٩٩٠، في ظل ظروف دراماتيكية نتيجة تبدل السياسة الدولية ، وعدم مراعاة النظام العراقي أهمية هذا التبدل في صنع القرارات الدولية .

وجاء الاحتلال الأمريكي للعراق للقضاء على النظام السياسي فيه ، وتدمير المؤسسات القائمة ، ليشكل مرحلة أكثر خطورة وعنفا ضمن منهج تدمير العراق وفقا لسياسات وأجندة قوى معادية كثيرة ومتنوعة .

وتنطلق هذه الدراسة من فرضية أن الاحتلال الأمريكي للعراق لا يشكل حدثا طارئا أو رد فعل ، بل مرحلة مهمة متميزة من الإستراتيجية الأمريكية ، وصولا إلى مرحلة الهيمنة المطلقة . ولهذا فهي إستراتيجية متدرجة المراحل ، لا تنحصر أهدافها في حدود العراق ، وإن كان العراق يشكل قاعدتها وركيزتها الأساس .

إن هذه الدراسة ستبحث في العوامل التي مهدت لغزو العراق واحتلاله ، وفي الحرب وأسبابها ، وتطور الإستراتيجية الأمريكية في هذه المرحلة ، عبر منهج تاريخي يعتمد التحليل والاستقراء .

(*) مدرس- قسم الدراسات الاوروبية- مركز الدراسات الدولية- جامعة بغداد

الفصل الأول
التمهيد لغزو واحتلال العراق

تميزت الإستراتيجية الأمريكية تجاه العراق في المرحلة التي أعقبت إخراج القوات العراقية من الكويت ، والتي امتدت زهاء ثلاثة عشر عاما من الحصار الشامل القاسي بما يأتي :

١ - استمرار التصعيد ضد العراق في مختلف المجالات ، ومنها تتابع صدور قرارات مجلس الأمن بموجب الفصل السابع (تحت مبررات جديدة) اتخذت صفة القسوة والإذلال ، تهدف إلى تقليص قدرات العراق في ظل حصار دولي محكم متعدد الجوانب ، تتخلله ضربات عسكرية مختارة ، مع شن حملة إعلام وتشويه متعددة الوجوه باستخدام أكبر قدر من الحرب النفسية ، من أجل إسقاط النظام السياسي في العراق .

٢ - محاصرة النظام العراقي سياسيا ودبلوماسيا ، وتضييق الخناق عليه ، وتعميق عزلته والتشكيك في أي محاولة عراقية للتصالح عربيا أو إقليميا ، وقطع الطريق على أي محاولة لتسوية الأزمة سياسيا .

٣ - استغلال أحداث الحادي عشر من أيلول ، وما رافقها من تغير في الجو النفسي الأمريكي والعالمي ، إلى أقصى الحدود ، لإيجاد صلة أو رابطة بين النظام العراقي والإرهاب العالمي وتلك الأحداث .

٤ - التخطيط لاحتلال العراق وإعلان خطة وضعت في صورة " مبادئ هادية لسياسة أمريكية في ما بعد الحرب في العراق " سبقت الغزو الأمريكي بأكثر من عام كامل ، وجاءت سنوات الاحتلال لتكشف بصمات تلك الخطة بصورة تكاد شبه متطابقة [١] .

المبحث الأول : التشريعات الأمريكية للحرب على العراق

بعد أن أدركت الإدارة الأمريكية بأن سياستها تجاه العراق المتمثلة في فرض الحصار الشامل ، ومنطقتي حظر الطيران في شمالي العراق وجنوبه ، وسياسة الاحتواء المزدوج قد فشلت في إسقاط النظام العراقي – رغم أنها كانت مراحل مهمة وفاعلة في سياسة الترويض - ، وأفادت كثيرا في إضعاف وهشاشة الجبهة العراقية ، اتجهت الإدارة الأمريكية في هذه المرحلة إلى إحداث تغيير نوعي في سياستها تجاه العراق ، وذلك بإعلان نيتها الصريحة المتمثلة بإسقاط النظام السياسي في العراق عن طريق استخدام القوة .جاء ذلك من خلال قيام الكونغرس الأمريكي باعتماد قانونين يدعمان ذلك التوجه ، وهما :

١- قانون تحرير العراق (Iraq Liberation Act of 1998) : واعتمد بتاريخ ٣١ تشرين الأول ١٩٩٨ في الحقبة التي سبقت أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ ، وقد جاء فيه أنه يجب أن تستهدف سياسة الولايات المتحدة دعم تبديل النظام الذي يرأسه صدام حسين من السلطة في العراق ، وتعزيز انبثاق حكومة ديمقراطية تحل محل هذا النظام . وتضمن هذا القانون تخصيص مبلغ (٩٩) مليون دولار كمساعدة إعلامية ودعائية وعسكرية .

٢- تفويض الرئيس الأمريكي باستخدام القوة ضد العراق (Joint Resolution to Authorize the Use of United States Armed Forces Against Iraq) :

---

[١] **تقرير وضعته مجموعة عمل مستقلة برعاية مشتركة من مجلس العلاقات الخارجية ومعهد جيمس بيكر الثالث للسياسة العامة في جامعة رايس . ينظر : العراق (الغزو – الاحتلال – المقاومة) ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط ١ ، بيروت ، ٢٠٠٣ ، ص ٢٠٥ .**

الذي اعتمده الكونغرس الأمريكي بتاريخ الثاني من تشرين الأول ٢٠٠٢ في حمى الحرب ضد الإرهاب وتصاعد الأزمة مع العراق . وجاء توقيت اعتماده بعد أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ ، واعتماد وثيقة الأمن القومي الأمريكي التي تعتمد " منهج الحرب الاستباقية " ، وقبل شهر من صدور قرار مجلس الأمن ١٤٤١ / ٢٠٠٢ الذي حاولت الولايات المتحدة استخدامه للحصول على تفويض باستخدام القوة ضد العراق

المبحث الثاني : جلسات مجلس الأمن الأخيرة قبل الحرب

أولا : قرار مجلس الأمن ٢٠٠٢/١٤٤١ : بدأت الإدارة الأمريكية التلويح باستخدام القوة ضد العراق لنزع أسلحة الدمار الشامل لديه ، بعد حدوث توتر لمرات عديدة في العلاقة بين العراق ولجنة الأنموفيك . وقد ازداد تصعيد الإدارة الأمريكية للأزمة مع العراق حدة ، بعد أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ . ونظرا إلى الخلاف بين الولايات المتحدة وأعضاء في مجلس الأمن حول مشروعية استخدام القوة ضد العراق ، فقد جرت مناقشات مكثفة بين الدول دائمة العضوية في المجلس للاتفاق على مشروع قرار ، وتوصلت أخيرا هذه الدول إلى صيغة توفيقية للقرار المقترح .

عقد مجلس الأمن جلسة بتاريخ الثامن من تشرين الثاني ٢٠٠٢ حيث تقدمت الولايات المتحدة وبريطانيا بمشروع القرار الذي صوت عليه المجلس بالإجماع تحت الرقم ٢٠٠٢/١٤٤١ . وبالرغم من خطورة وأبعاد هذا القرار الذي يتضمن إنذارا إلى العراق ، فإنه لم يعتمد المنظور الأمريكي بتلقائية اللجوء إلى استخدام القوة .

وقد تضمن القرار الذي صدر بموجب الفصل السابع ، في فقراته العاملة ، **بأن العراق كان وما يزال في حالة خرق جوهري لالتزاماته** المنصوص عليها في القرارات ذات الصلة ، وإنه يمنح العراق بموجب هذا القرار فرصة أخيرة للامتثال لالتزاماته المتعلقة بنزع السلاح ، فضلا عن أمور أخرى في غاية القسوة تزيد من انتهاك السادة العراقية .

وما كان على النظام العراقي إلا أن يوافق على التعامل مع القرار المذكور ، حسب ما جاء في رسالة وزير خارجية العراق إلى الأمين العام للأمم المتحدة المؤرخة في الثالث عشر من تشرين الثاني ٢٠٠٢ [١].

ثانيا : الفرصة الأخيرة : عقد مجلس الأمن جلسات عدة منذ بداية العام ٢٠٠٣ ، بعضها على مستوى وزراء خارجية الدول الأعضاء في المجلس . وقد تخللت تلك الجلسات اختلافات عميقة في وجهات النظر وتقويم مدى التزام العراق . وجاءت شهادات " هانز بليكس " رئيس لجنة الأنموفيك و" محمد البرادعي " المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية الضبابية بصدد أعمال التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل ، لتلقي مزيدا من الغموض والتباين في المواقف . وشهدت آخر جلسة على مستوى وزراء الخارجية قبل الحرب بتاريخ السابع من آذار ٢٠٠٣ ، انقساما واضحا في مواقف الدول الممثلة في المجلس . وزعت في هذه الجلسة وثيقتان : الأولى تمثل التوجهات الفرنسية – الروسية – الألمانية ، وتدعو إلى تعزيز عمليات التفتيش ووضع جدول زمني لها . والثانية التوجهات الأمريكية – البريطانية – الإسبانية ، التي تمثلت في مشروع قرار موزع على أعضاء المجلس (لم يطرح على التصويت) ، ويعد أن العراق فشل في تطبيق القرار ٢٠٠٢/١٤٤١ ،

[١] **الوثيقة رقم : S/2002/1198 .**

ويتضمن إنذارا له بأنه سيعد قد فشل في الإفادة من الفرصة الأخيرة الممنوحة له بموجب القرار المذكور ، إذا لم يقم قبل السابع عشر من آذار ٢٠٠٣ بتنفيذ التزاماته بالتعاون الكامل وغير المشروط بموجب كل القرارات ذات الصلة [١].

وفي تاريخ الحادي عشر من آذار عقد مجلس الأمن بناءا على طلب ماليزيا ممثلة حركة عدم الانحياز جلسة حضرتها وفود (٣٩) دولة من غير أعضاء المجلس ، وبعد أن انتهت مداخلات مندوبي الدول الذين أكد معظمهم ضرورة التوصل إلى حل سلمي للأزمة ، رفعت الجلسة من **دون اتخاذ أي قرار** . وكانت هذه هي الجلسة الأخيرة لمجلس الأمن قبل بدء الحرب على العراق في التاسع عشر من آذار ٢٠٠٣ .

المبحث الثالث : قرار الحرب

بينما كانت الاستعدادات والحشود الأمريكية تجري على قدم وساق تمهيدا لغزو العراق في ظل مناقشات عقيمة وانقسام واضح في مجلس الأمن ، كانت هناك تظاهرات واسعة وصفت بأنها الأكبر في التاريخ ، تجري في كافة أرجاء العالم تندد بالحرب . وبدت الإدارة الأمريكية غير مكترثة بالرأي العام المندد بالحرب ، فقد نقلت صحيفة " نيويورك تايمز " عن الرئيس بوش قوله " إن القيادة تتطلب أحيانا تخطي الرأي العام ، لأن دور القائد هو في تقرير السياسة التي يتبعها بناءا على حفظ الأمن " ، كما أكدت الصحيفة أن الرئيس بوش يسعى إلى تبني إستراتيجية لإقناع الحلفاء المتلكئين بأن التفتيش لن يؤدي إلى نزع سلاح العراق ، وإنه يخطط للتوصل إلى قرار حول استعمال القوة ضد العراق خلال أسابيع ، مهما فعل مجلس الأمن [٢].

في هذه الأجواء ، واستباقا لجلسة مجلس الأمن المقرر عقدها في السابع عشر من آذار ٢٠٠٣ ، أدلى سفراء كل من الولايات المتحدة وبريطانيا واسبانيا لدى مجلس الأمن – كل على حدة – ببيان أعلنوا فيه سحب المشروع المقدم من قبلهم ، معللين بعدم التمكن من الحصول على موافقة لتمريره ، بسبب التهديد باستخدام حق النقض من قبل إحدى الدول . وبذلك فقد أغلق الباب على الجهود الدبلوماسية في مجلس الأمن .

وفي قمة الازور المنعقدة في السابع عشر من آذار ٢٠٠٣ التي ضمت كلا من الرئيس الأمريكي ورؤساء حكومات بريطانيا واسبانيا تم تحديد ذلك اليوم موعدا أخيرا للجهود الدبلوماسية . وعبر كل من جورج بوش وتوني بلير عن احتقارهما الشديد للقانون الدولي والمؤسسات الدولية ، وأصدرا إنذارا لا للعراق فحسب ، وإنما لمجلس الأمن " عليك أن تذعن وإلا فإننا سنقوم بعملية الغزو من دون أن تبصم موافقتك التافهة ، وإننا سنفعل ذلك سواء غادر صدام حسين وعائلته البلاد أم لا " . وحسب ما جاء في صحيفة نيويورك تايمز في الثامن عشر من آذار أن عصب المسألة هو أن الولايات المتحدة مصرة على أن تحكم العراق [٣]. وأعلن الرئيس بوش بصراحة " أن لدى الولايات المتحدة تخويلا مطلقا باستخدام القوة للدفاع عن أمنها القومي المهدد بالعراق ، مع صدام أو من دونه " [٤].

---

[١] **ينظر مشروع القرار بالوثيقة رقم S/2003/215 بتاريخ ٧ آذار ٢٠٠٣ .**

[٢] **هانز بليكس ، نزع سلاح العراق : الغزو بدلا من التفتيش ، منشورات بانثيون ، نيويورك ، ٢٠٠٤ ، ص ٢١٢-٢١٧ .**

[٣] **العراق (الغزو – الاحتلال – المقاومة) ، مصدر سابق ، ص ٦٢ .**

[٤] **المصدر نفسه ، ص ٦٢ .**

وطبقا للموعد النهائي ، فقد أعلن الرئيس جورج بوش بخطاب متلفز من البيت الأبيض فجر يوم الثلاثاء الثامن عشر من آذار ٢٠٠٣ (بتوقيت بغداد) ، انتهاء العمل الدبلوماسي بالتعامل مع أزمة العراق ، وعليه فقد وجه إنذارا نهائيا للرئيس العراقي صدام حسين وولديه بمغادرة العراق خلال ثمان وأربعين ساعة .

الفصل الثاني
الحرب وأسبابها

بوتيرة عالية واندفاع محموم ، تسارعت الأحداث ، وهكذا بعد ساعة ونصف من انتهاء مهلة الإنذار المقررة في الساعة الرابعة من فجر يوم الخميس العشرين من آذار ٢٠٠٣ (بتوقيت بغداد)، تساقطت الصواريخ المسيرة وقنابل طائرات الشبح على أهداف منتقاة في بغداد لتؤذن ببداية الحرب على العراق، فيما عرف بحملة (الصدمة والترويع) ضمن عملية (تحرير العراق) . ولتنتهي الصفحة الأولى من العمليات العسكرية بدخول القوات الأمريكية إلى بغداد في التاسع من نيسان ٢٠٠٣ وسط ذهول ودهشة الجميع .

ومن أجل مقاربة المعطيات والأهداف الإستراتيجية لهذه المرحلة (٢٠٠٣-٢٠٠٧) ، لابد من استعراض ومعرفة الأسباب التي قادت الإدارة الأمريكية لهذه الحرب .

المبحث الأول : أسباب الحرب

أولا : الأسباب المباشرة

١- الأسباب المعلنة : استغلت الإدارة الأمريكية أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ كونها فرصة لا تعوض لتصفية حساباتها مرة واحدة مع العراق ، مستندة بذلك إلى مجموعة أسباب كامتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل وتعاونه مع الإرهاب العالمي ، وعدم انصياعه لقرارات الأمم المتحدة.

وكانت قرارات مجلس الأمن ذات العلاقة الصادرة تحت عنوان (الحالة بين العراق والكويت) والصادرة بموجب الفصل السابع من الميثاق ، قد عدّت أن العراق يشكل تهديدا للسلم والأمن الدوليين . وقد تم تعليق رفع العقوبات المفروضة على العراق ، بالتحقق عن طريق لجنة الأنموفيك والوكالة الدولية للطاقة الذرية بأن العراق قد قام فعلا بتنفيذ التزاماته الخاصة بالتخلص من أسلحة الدمار الشامل ، وكذلك التزاماته بصدد الإرهاب الدولي .

لقد وظفت الولايات المتحدة وخلال حقبة الحصار القاسية التي امتدت ثلاثة عشر عاما بعد إخراج القوات العراقية من الكويت كل إمكانياتها السياسية والدبلوماسية ضمن حملة إعلامية كبرى باستخدام أسلحة (التضليل الشامل) على أن العراق يمتلك ويطور تلك الأسلحة المحظورة .

ولكن بمجرد انتهاء الحرب وإكمال غزو العراق ، ومن دون التحقق من نزع أسلحة الدمار الشامل أو امتلاك العراق لها ، أصدر مجلس الأمن الدولي قراره المرقم ١٤٨٣ في الثاني والعشرين من أيار ٢٠٠٣ ، والذي ألغى بموجبه الحصار الاقتصادي المفروض على العراق ، وإنهى عمل لجنة العقوبات [١]. جاء هذا رغم أن الولايات المتحدة وبريطانيا سبق أن أكدتا برسالة إلى رئيس مجلس الأمن بتاريخ الثامن من أيار ٢٠٠٣ بأنهما قد اجتاحتا العراق لهدف أساسي ،

[١] الأمم المتحدة ، مجلس الأمن ، الوثيقة S/RES/1483(2003).

وهو تجريد العراق من أسلحة الدمار الشامل [١]. ثم جاء تقرير لجنة الأنموفيك بعد الحرب (التقرير الفصلي التاسع عشر في السادس والعشرين من تشرين الثاني ٢٠٠٤) ليؤكد خلو العراق التام من أسلحة الدمار الشامل [٢].

وبهذا الصدد فإن الرئيس بوش كان قد اعترف بخطابه في الرابع عشر من كانون الأول ٢٠٠٥ ضمن سلسلة خطب (إستراتيجية النصر) بأن المعلومات الاستخبارية المقدمة له بشأن امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل كانت غير صحيحة ، ولكن ذلك لا يقلل من صحة القرار بشن الحرب على العراق ، والذي قال إنه يتحمل مسؤولية اتخاذه .

وما يقال عن أسلحة الدمار الشامل ، ينصرف أيضا إلى (الإرهاب) ، ففي المدة التي أعقبت احتلال العراق صدرت تقارير مشوشة ومتناقضة عن الموضوع ، ولكن لم يقدم أي دليل مادي لإثبات الحالة ، بل على العكس ، فإن الحرب على العراق زادت من الإرهاب وخطره ، وتحول العراق إلى ساحة مفتوحة للإرهاب العالمي .

٢- النفط : إن موضوع أهمية النفط لا يحتاج إلى إطالة أو تفصيل ، فقد أصبح النفط عصب الحياة الأول في العالم ، وبدونه تتوقف الحياة تماما في كل مجالاتها خاصة بالنسبة للولايات المتحدة كونها الدولة الأعظم في العالم . وشكل النفط العامل الأول في اهتمام الولايات المتحدة بالعراق لعدة عوامل ، ليس في أقلها بأن العراق يحوي مخزونا هائلا من الاحتياطي المؤكد يضعه ثاني احتياطي في العالم ، باختصار فإن العراق هو الحل ، إذ يشكل نقطة التقاطع الواضحة بين الأهداف الإستراتيجية وصناعة النفط .

فضلا عن ذلك " عملة النفط " لاسيما بعد استخدام اليورو بدل الدولار في مبيعات النفط العراقي ضمن مذكرة التفاهم . ولطالما قيل أن الحرب على العراق هي حرب من أجل عملة النفط ، تهدف إلى منع توجه الأوبك نحو اليورو كعملة معتمدة ، وهكذا من أجل الحيلولة دون ذلك تحتاج الولايات المتحدة إلى سيطرة جيو ستراتيجية على العراق بما في ذلك مخزونه الهائل . ويؤكد آخرون بأن للحرب على العراق أهدافاً هي : العودة باحتياطي النفط إلى الدولار ، وإرسال إنذار واضح إلى المنتجين الآخرين بأنهم سيلاقون المصير نفسه إذا ما تخلوا عن التعامل بالدولار ، وأيضا توجيه ضربة لأوروبا وعملتها الموحدة [٣].

ومع انكشاف نضوب النفط خاصة في الحقول الأمريكية ودخول الحقول النفطية العالمية مرحلة الذروة في الإنتاج ، تصبح ممارسات واشنطن في العراق أكثر وضوحا . العراق ليس سوى خطوة على طريق الهيمنة العسكرية الأمريكية على سائر ما تبقى من الاحتياطات في العالم . أما السبب الثاني في الاندفاع المفاجئ نحو العراق ، واستعجال بوش في اتخاذ قرار الحرب فيتعلق بما أطلق عليه الخبراء اسم " الذروة النفطية " ، ويعود التوقيت وسرعة اتخاذ القرار بالحرب إلى الصدمة القاسية التي تلقتها الخطط الأمريكية الخاصة بنفط قزوين ، حيث انتهت الأحلام الأمريكية بالفشل ، سواء كان ذلك من حيث الكمية أو النوعية [٤].

---

[١] **الوثيقة S/2003/538 .**

[٢] **الوثيقة S/2004/924(26.11.2004).**

[٣] **العراق : الغزو-الاحتلال-المقاومة ، مصدر سابق ، ص ١٠١ .**

[٤] **عبد الحي زلوم، حروب البترول الصليبية والقرن الأمريكي الجديد ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٥ ، ص ٣٠-٣١ .**

وجاءت الحرب الأمريكية على العراق لتنهي سائر العقود والاتفاقات المبرمة سابقا مع دول مثل روسيا وفرنسا وألمانيا ، الأمر الذي يفسر سر معارضة هذه الدول للحرب قبل أن تبدأ ، كما أن المحليين يضعون الضغط على الصين ضمن تلك الأهداف في السيطرة على المنابع وطرق الإمدادات النفطية ، خاصة أن الصين تجاوزت اليابان في العام ٢٠٠٤ في حجم الواردات النفطية ، لتصبح ثاني أكبر مستورد للنفط في العالم [١].

ولابد أن نأخذ بنظر الاعتبار أن الاحتلال الأمريكي وإن كان لا يعني نهب ثروة العراق النفطية بهذه البساطة ، فإنه يهدف إلى الهيمنة والاستحواذ على السياسة النفطية إنتاجا وتصديرا ، وبذلك يستطيع أن يتحكم إلى حد كبير بالنفوذ والتأثير على اقتصاديات قوى كبرى كأوروبا الغربية والهند والصين واليابان ، لاسيما على المدى البعيد ، وعلى ضوء أرجحية الاحتياط النفطي العراقي على حساب نفط دول منتجة أخرى .

٣- إسرائيل : هدم عبور الجيش المصري لقناة السويس وتحطيم خط بارليف في حرب تشرين ١٩٧٣ نظرية الأمن الإسرائيلي ، وهنا ردت إسرائيل بحاجتها إلى حاجز بري شاسع بدل المانع المائي ، وكان لها ما أرادت بتجريد صحراء سيناء من السلاح وتواجد الجيش المصري فيها ، ثم كانت اتفاقات السلام مع مصر والأردن . وفي حرب الكويت طالت الصواريخ العراقية إسرائيل ، وهنا ردت الأخيرة وحلفائها بإرغام العراق على تقليص قوته العسكرية ونزع سلاحه المؤثر وتدميره اقتصاديا ، ومن ثم جاء احتلال العراق ليخرجه وإلى مدى غير منظور من أي صراع عسكري محتمل مع إسرائيل .

ثانيا : الأسباب المرتبطة بالأهداف

١- مشروع الشرق الأوسط الكبير : رغم التعقيدات والمشاكل التي تواجهها الإدارة الأمريكية في العراق ، فهي لا تريد أن تفشل ، لأن فشلها في العراق يعني فشلها في مكافحة الإرهاب ، ومن جهة أخرى فإنها تريد أن يكون العراق أنموذجا للإصلاح على الطريقة الأمريكية لكي تقتدي به دول المنطقة . فمن وجهة النظر الأمريكية أن الإصلاح الشامل في الدول النامية أصبح أمرا حتميا من أجل سلامة الأمن القومي الأمريكي ، فهناك علاقة بين الإرهاب وواقع تلك الدول ، فالإرهاب من وجهة نظرها ، ولد في أحضان تلك الدول ، وعليه فإن التصدي للإرهاب يكمن في إصلاح مجتمعات هذه الدول سياسيا واقتصاديا وثقافيا .

لذلك تقدمت الإدارة الأمريكية بمجموعة أفكار قدمت في سياق ما يعرف بـ (مبادرة الشرق الأوسط الكبير) ، والتي هي في حقيقتها مدخل لفرض النهج الإمبراطوري الأمريكي على العالم ، بعد النجاح في احتلال العراق ؟ والمبادرة من الناحية الجغرافية تشمل المنطقة الممتدة من المغرب إلى الباكستان بما فيها أفغانستان وتركيا وإيران ، وتتضمن إدماج إسرائيل في المشروع .

وكان الرئيس الأمريكي قد شدد في خطاب له قبل الحرب على قضيتين أساسيتين هما : أن تغيير النظام في العراق سيفسح المجال أمام تغييرات إيجابية في كامل منطقة الشرق

[١] المصدر نفسه ، ص ٥٤ .

الأوسط ، كما أنه سيساعد في السير قدما نحو تنفيذ رؤيته الخاصة بالصراع الفلسطيني الإسرائيلي ، وتلك بالضبط هي الرؤية الإسرائيلية للحرب [١].

٢- مركز العراق : يقول زلماي خليل زاد بأن " الصراع على العراق صراع على الإقليم " [٢]. العراق بموقعه الإستراتيجي في نقطة التقاء ثلاث قارات يشكل هدفا كبيرا وجائزة ثمينة لا تعوض للقوى العظمى الطامعة . فضلا عن ذلك فإنه يشكل مساحة فاصلة بين سورية وإيران والتي تهدف الولايات المتحدة إلى إحداث تغيير في سياستيهما . العراق بلد عريق يمتلك كل إمكانيات النهوض الاقتصادي ، وتركيبته التعددية تجعله قابلا لصياغة نموذج ديمقراطي يستعصي وجوده في أي دولة عربية أخرى . والخلاصة أن الحرب على العراق واحتلاله أحدثت تغيرا جيوستراتيجيا هائلا في المنطقة والعالم .

٣- ساحة المعركة مع الإرهاب : من الأمور المهمة في هذه الحرب واحتلال العراق أن الولايات المتحدة تمكنت وبجدارة أن تنقل ساحة المعركة مع الإرهاب إلى الأرض العراقية ، مما خلق بيئة (آمنة) في الولايات المتحدة . فالأخيرة خلافا لالتزاماتها القانونية والأخلاقية – كدولة محتلة – فتحت حدود العراق على مصراعيها ، ليتحول العراق إلى ساحة مركزية في المعركة مع الإرهاب الذي عاث في الأرض فسادا .

وكثيرة هي التصريحات المتكررة للرئيس بوش وهو يتبجح بأن العراق أصبح الجبهة الرئيسة لمحاربة الإرهاب ، وقد أصبح ساحة القتال المحتدمة مع هذه القوى ، بدلا من أن تكون المعركة داخل الولايات المتحدة [٣].

لقد توقعت التقارير الاستخبارية الأمريكية قبل الحرب زيادة نفوذ تنظيم القاعدة في العراق . وهذا يؤكد أن فتح الحدود وتحويل العراق إلى ساحة المعركة الرئيسة لسياسة مبرمجة ولم يكن حدثا عارضا .

٤- ضرورة الحرب : أضاف دعاة الحرب سببا آخر هو إن الحرب ضرورية ، بل لا يمكن تجنبها بسبب عدم وجود سياسة أخرى يمكنها تحقيق المطلوب بدون الحرب ، فاستخدام القوة أصبح الطريقة الوحيدة بعد أن فشلت سياسة الاحتواء ، كما أن عمليات التفتيش لم تكن كافية أبدا لتحقيق المطلوب [٤].

إن الحرب على العراق ، وإسقاط نظام صدام حسين ضرورية من وجهة نظر رموز الإدارة الأمريكية ، لأنها ليست سوى مرحلة ضمن عملية كبرى لتغيير سياسات المنطقة. إن الحرب على العراق ليس هدفها نظام صدام فحسب ، بل فرض رؤية جديدة للعالم يتم بموجبها تغيير النظامين السوري والإيراني ، وإجراء إصلاحات جذرية في الأمم المتحدة ، واحتواء الدول الأوروبية المتمردة على ساسة واشنطن ، لاسيما فرنسا وألمانيا [٥].

ثالثا : أسباب أخرى

---

[١] **التقرير الإستراتيجي العربي (٢٠٠٢-٢٠٠٣) مؤسسة الأهرام ، ط ١ ن القاهرة ، ٢٠٠٣، ص ١٣٥.**
[٢] **قناة الحرة عراق الفضائية ، لقاء في بغداد بتاريخ ١٤ تشرين الأول ٢٠٠٥ .**
[٣] **خطاب للرئيس الأمريكي بوش بتاريخ ٢١ آذار ٢٠٠٦ .**
[٤] **نعوم تشومسكي ، قناة دبي الاقتصادية الفضائية ، ١٦ حزيران ٢٠٠٤ .**
[٥] **صحيفة " فايننشال تايمز " البريطانية ، ٢٢ آذار ٢٠٠٣ .**

١- محور الشر : منذ بداية العام ٢٠٠٢ اكتسبت السياسة الأمريكية تجاه العراق طابعا عدائيا متزايدا ، وتمثلت بداية هذا التصعيد في خطاب (حالة الاتحاد) الذي ألقاه الرئيس بوش في التاسع والعشرين من كانون الثاني ٢٠٠٢ ، تحدث فيه عن ثلاث دول تمثل تهديدا لأمن الولايات المتحدة ، هي العراق وإيران وكوريا الشمالية ، وهي مجموعة الدول التي أطلق عليها بوش محور الشر [١].

٢- العامل الديني : يقول (جون كولي) : " إن الأساطير الدينية دفعت واشنطن لاحتلال العراق " . هذه الأساطير في رأي البعض ، ومنهم المحافظون الجدد هي معتقدات وإيمان ، منها قرب عودة المسيح ، أو ظهور المهدي المنتظر . ويعتقد المسيحيون الصهاينة بأن أرض إسرائيل هي هبة من الله للشعب اليهودي ، وبأنه كشرط للعودة الثانية للمسيح لابد من عودة كافة اليهود لإسرائيل تمهيدا للمعركة الكبرى الفاصلة بين قوى الخير وقوى الشر ، ومن هنا قال بوش أن حربه على الإرهاب هي حرب الخير على الشر . وهذا هو تأكيد للحلم المسيحي الجازم بأن الله اختار الولايات المتحدة لتحمل رسالة الخير للعالم :" إننا شعب يؤمن بأرض الميعاد ، شعب يؤمن بأن الله اختاره ليخلق عالما أفضل " [٢].

ويلخص (جورج ماكغفرن) أحد مرشحي الرئاسة السابقين مهمة بوش السماوية قائلا :" لطالما باح الرئيس بوش إلى التخلص والمقربين منه أن يد الله هي التي تهديه ، وأن الله هو الذي أوحى إليه أن يغزو العراق " [٣].

وضمن العامل الديني هناك من يردد بأن الحرب الأمريكية في أفغانستان والعراق هي جزء ومقدمة لحرب صليبية شاملة ضد العالم الإسلامي ، وهذا ما قاله الرئيس بوش نفسه ، عندما وصفها بأنها " حملة صليبية " [٤].

٣- العامل التاريخي : يمثل العراق بالنسبة للأصولية البروتستانتية في (ولايات حزام التوراة) أرض آشور بابل التي قام حكامها باقتياد شعب الله المختار إلى السبي .

٤- قطع الطريق على ثورة شعبية : إن قيام ثورة شعبية في العراق تطيح بنظام صدام سوف لا تخدم الأهداف الأمريكية بعيدة المدى ، لجملة عوامل منها الاختلاف الجذري في الأسباب والأهداف والاستحقاقات ، فقيام الإدارة الأمريكية بالتغيير سيرتب لها استحقاقات على العراقيين ، لذلك يقول تشومسكي " إن ثورة شعبية لن تضع دفة الأمور في يد الولايات المتحدة " [٥].

٥- أسباب شخصية : تتعلق بما قيل عن محاولة من تدبير المخابرات العراقية لاغتيال الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الأب أثناء زيارته للكويت ، وقيام السلطات العراقية بوضع صورته على أرضية مدخل فندق الرشيد في بغداد لتداس بأقدام الداخلين والخارجين

---

[١] **السياسة الدولية مصدر سابق ، ص ٢٩ .**

[٢] **من خطاب الرئيس الأمريكي الأسبق ريغان . ينظر : عبد الحي زلوم ، الحرب الصليبية ، مصدر سابق ، ص ٣٦٢ .**

[٣] **العراق : الغزو-الاحتلال-المقاومة ، مصدر سابق ، ص ٩٤ .**

[٤] **جرى التراجع عنها ، ووصفت بأنها زلة لسان !!**

[٥] **نعوم تشومسكي ، الهيمنة أم البقاء – السعي الأمريكي للسيطرة على العالم ، ترجمة سامي الكعكي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ٢٠٠٤ ، ص ١٩٦ .**

إلى ذلك الفندق . فضلا عن ضغوطات اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة على الرئيس بوش لشن تلك الحرب .

٦- البديل عن السعودية : كان الهدف الطموح للحرب الأمريكية على العراق – كما فصله المحافظون الجدد المعنيون بالشؤون الدفاعية – هو إحداث تحول أساسي في سياسات الشرق الأوسط . والتحول بالتحالف الأمريكي مع النظام في السعودية إلى خلق عمود جديد للسياسة الأمريكية في المنطقة في عراق ما بعد صدام [١] .

٧-حماية الحقوق الإنسانية في العراق : أما ما يقال عن هذا الهدف ومنع انتهاكات صدام حسين لحقوق الإنسان ، فلم يركز المسؤولون الأمريكيون على هذه النقطة ، رغم العثور لاحقا على رفات آلاف العراقيين في مقابر جماعية، وعدم العثور على أسلحة دمار شامل .

المبحث الثاني : إستراتيجية الهيمنة الأمريكية

يطلق البنتاغون على هذه الهيمنة أو التفوق على المنافسين كافة تعبيرا خاصا هو " طيف الهيمنة الكامل " ، وهذا يعني بأن على الولايات المتحدة الهيمنة على كل شيء وفي كل مكان [٢]. وفي مقالة للكاتب (روبرت دريفوس) في مجلة (Mother Jones) :" إن المفتاح الرئيس للأمن القومي في التصور السياسي وراء السياسة الأمريكية الحالية تجاه العراق ، يكمن في الهيمنة العالمية ، والسيطرة على جميع المنافسين المحتملين " [٣].

إن الهدف النهائي للمحافظين الجدد هو التفوق الأمريكي المطلق في عالم جديد وحيد القطب، فغزو العراق لن يمكنهم من تنظيم خريطة ما بعد الحرب العالمية الأولى للمنطقة وحدها، بل سيمكنهم من تنظيم خريطة ما بعد الحرب العالمية الثانية أيضا ، فبنية العلاقات الدولية ما بعد الحرب العالمية الثانية سيتم تفكيكها ما دام المحافظون الجدد في السلطة [٤]. وهذه المقولة يؤكدها افتراض (أمانويل وولرستين) عن الحرب " إن بوش فعل ذلك ليبرهن على التفوق العسكري الساحق للولايات المتحدة ولتحقيق هدفين رئيسين[٥]:

أولا : إكراه كل من يفكر في امتلاك السلاح النووي بالتخلي عن مشاريعه .

ثانيا : ضرب كل الأفكار الأوروبية عن الدور السياسي المستقل في النظام العالمي .

إن هذه الإستراتيجية العظمى تخول الولايات المتحدة شن حرب وقائية ، وليست استباقية ، ومهما كانت مبررات هذه الحرب الاستباقية فإنها تتهافت في حالة الحرب الوقائية ، وهكذا يبدو اصطلاح (وقائي) وكأنه عمل خيري عظيم للقضاء على تهديد ملفق أو متخيل .

ولقد تمخض عن فكرة الحرب الوقائية إستراتيجية أمن شاملة محورها الرئيس هو الحرب الوقائية ، والجديد في هذا المفهوم من المنظور الأمريكي هو إنه يحفظ لأمريكا

---

[١] **جون كول ، في : العراق-الغزو-الاحتلال-المقاومة ، مصدر سابق ، ص ١٥٧ .**
[٢] **عبد الحي زلوم ، حروب البترول الصليبية ، مصدر سابق ، ص ٦٣ .**
[٣] **صحيفة الواشنطن بوست ، ٨ نيسان ٢٠٠٣ .**
[٤] **العراق : الغزو-الاحتلال-المقاومة ، مصدر سابق ، ص ١٠٠ .**
[٥] **المصدر نفسه ، ص ١٠١ .**

الحق في خوض حرب وقائية حينما ترغب هي وحينما ترى هي مبررا لذلك ، متذرعة بحجة الخطر المحتمل [١] .

إن هذا المفهوم المتزامن مع امتلاك قوة عسكرية هائلة قد عزز من النزعة الانفرادية لدى الإدارة الأمريكية ، ولهذا فإن الرئيس بوش كان يردد دائما :" إن ما نقوله لا مرد له " ، و" لن انتظر الأحداث فيما يدلهم الخطر ... إن حربنا على الإرهاب قد بدأت فعلا ... وإنه لمن مسؤوليتنا وخصيصتنا أن نحارب حرب الحرية " . لذلك فإن من يمارس الهيمنة ويحاول الانفراد بها لن يكون مهتما بالإجابة على أسئلة تتعلق بالأخلاق والشرعية والعدالة والإنصاف [٢] .

إن إستراتيجية الهيمنة تبلورت وأخذت طريقها للتنفيذ مع تصاعد نفوذ وسطوة اليمين الديني والسياسي على السياسة الأمريكية ، وكان العشرين من كانون الثاني ٢٠٠١ وهو البداية الرسمية لتولي بوش السلطة ، تعبيراً حياً عن نجاح اليمين الأمريكي بشقيه السياسي المعروف اصطلاحا باليمين المحافظ الجديد (New Conservatives) ، والديني المعروف اصطلاحا باليمين المسيحي الجديد (New Christion Right) في الوصول إلى أعلى مؤسسات السلطة والحكم في الولايات المتحدة ، وكلاهما معروف بتطرفه ونظرته الإيديولوجية للقضايا المختلفة ، بما في ذلك ما يرونه الدور الواجب للولايات المتحدة عالميا [٣] .

المبحث الثالث : الإستراتيجية الأمريكية في هذه المرحلة

غالبا ما يكون أصعب جزء في الحرب هو السلام ، وهذا هو ما أصبح عليه الحال في العراق بعد انتهاء العمليات العسكرية وسقوط النظام في نيسان ٢٠٠٣ . ويبدو أن نشوة النصر العسكري السريع الذي تحقق قد أسكرت عقول المحافظين الجدد ، فدفعت بهم بعيدا لتعميم سياسة (الصدمة والترويع) التي شكلت نهج الحرب التي شنت ، لتغطي بقية محاور السياسة الأمريكية في العراق ، وبذلك فقد مهدت صدمة الهجوم العنيف لمزيد من العلاج بالصدمات .

ونتيجة لذلك فقد دخل العراق في فوضى عارمة شلت جميع مفاصله وأجهزت على دولة حديثة عمرها ثمانون عاما ، ليدخل العراق في أتون نفق مظلم جديد في مسار لإستراتيجية أمريكية غامضة ومشوشة المعالم ، تبدو للناظر إليها من الوهلة الأولى وكأنه أمام ضياع وتخبط .

إلا أن النتائج المتحققة بعد مرور خمس سنوات على الحرب تثبت خطل هذا الرأي ، ومنهم المراهنين على هزيمة سياسية تغطي على النصر العسكري . إن الفوضى والدمار الذي حصل كان نتيجة مرافقة وهدف متزامن للسياسة الأمريكية المعدة سلفا للعراق حسب المراحل المحددة بموجب (مبادئ هادية لسياسة أمريكية في ما بعد الحرب في العراق) .

---

[1] M.E.O' Hanlon ,Susan Rice & James Steinberg , The New National Security Strategy &Premption , Policy Breif M3, Brookings Jnstitute , 2002 .

[٢] د. حميد حمد السعدون ، الغرب والإسلام والصراع الحضاري ، دار وائل للطباعة والنشر ، عمان ، ٢٠٠٢ ، ص ١٣٥ .

[٣] التقرير الإستراتيجي العربي (٢٠٠٢-٢٠٠٣) مصدر سابق ، ص ١٣٥ .

أما ما يحدث هنا وهناك من انحراف أو تعثر أو تباطؤ ، فهو من طبيعة الأشياء المصاحبة لحدث كبير كالحرب والاحتلال . فالحرب تنفتح دائما على المجهول ، ومتغيرات الأرض لا يمكن التنبؤ بها بدقة ، وإن صح توقعها ، فلا يمكن ضبط حساباتها ومجرياتها ، ففي أحيان كثيرة تكون خارج السيطرة والتوقعات ، لاسيما إذا تحول الفعل العسكري المتمثل بالحرب إلى احتلال .

ولكي نقترب من إدراك كل الذي جرى ، لابد من الوقوف على المرتكزات النظرية للإستراتيجية الأمريكية في هذه المرحلة ، والمتمثلة في " الفوضى الخلاقة " ، توظيفا لفكرة (مايكل ليدن) في "التدمير البناء"، و"الفساد المنتج " لـ (صاموئيل هنتنغتون) .

إن مفهوم الفوضى الخلاقة يعني فوضى عارمة ، واضطرابات وتفكيك للبنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وتسفيه أخلاقي وفكري للقيم عبر وسائل عسكرية وفكرية وإعلامية . وهذا هو ما جرى بالضبط في العراق بعد الغزو والاحتلال ، بعد أن تم التمهيد له بوسائل وأساليب عديدة من خلال سياسة " الترويض والتجويع " طوال ثلاثة عشر عاما من الحصار الشامل على العراق .

وفي هذا الصدد تقول وزيرة الخارجية الأمريكية (كوندوليزا رايس) في حديث مع مجلة (تايم) الأمريكية بتاريخ السادس من آب ٢٠٠٦ : " إن الأزمات في منطقة الشرق الأوسط هي دليل على نشوء شرق أوسط جديد " ، وتقول أيضا " نعم، إننا نمر في مرحلة اضطرابات وصعوبات ولكن المتغيرات الكبرى لا تحصل من دون اضطرابات وصعوبات " .

لقد تم تنفيذ هذه السياسة في العراق بمنتهى الدقة والمرونة أيضا ، لإشغال وتحويل الانتباه عن الموضوع الأساس (Change the Subject) المتمثل بتحقيق الأهداف الإستراتيجية الأمريكية الكبرى في العراق ، والتي نجحت فيها الإدارة الأمريكية نجاحا متميزا رغم كل الصعوبات والإخفاقات (المرحلية) والتي هي شيء ثانوي لا يمكن التوقف عنده إزاء ضخامة الأهداف المتحققة .

ورب سائل يسأل ، إذا كانت المنطقة بغالبيتها تخضع للنفوذ الأمريكي ، فضلا عن تحول الولايات المتحدة في احتلالها للعراق إلى قوة إقليمية – كما هي بالطبع قوة عالمية متفردة - ، فلماذا تلجأ إلى الفوضى بدلا من تثبيت الاستقرار ؟ ولماذا يجب أن تتحول إلى الفوضى الشاملة للوصول إلى مرحلة بناءة لصالحها ؟

واقع الأمر أن الفوضى مطلوبة في الساحات العصية على التطويع والإلحاق ، وهل هناك في العالم كله ساحة عصية على التطويع أكثر من العراق؟ وكنتيجة لطول الحرب وتداعياتها على الساحة الأمريكية الداخلية تحديدا ، والتراجع الاقتصادي الذي زادته حدة النفقات العسكرية الباهظة ، علاوة على الفساد المرافق له ، وتراجع مصداقية الأسباب المعلنة للحرب ، كان لابد من إجراء تغييرات تكتيكية في إستراتيجيتها في العراق ضمن (وقفة تعبوية) ، نجم عنها خروج معظم الصقور من المحافظين الجدد في الإدارة الأمريكية ، وعلى رأسهم (رامسفيلد) وزير الدفاع ، وبقية الطاقم المدني في مجلس السياسة الدفاعية في البنتاغون .

وتبع ذلك زيادة في عديد القوات المسلحة الأمريكية في العراق ابتداءا من العام ٢٠٠٧ ضمن ما عرف (إستراتيجية زيادة القوات) لتحقيق مبادئ الرئيس بوش في (الإستراتيجية القومية للنصر في العراق) والتي عاد مرة أخرى للتأكيد عليها في كانون

الثاني ٢٠٠٧ فيما أسماه (تحقيق النصر في العراق) ، والذي حدده في الوصول إلى هدف إقامة عراق ديمقراطي ، يدعم حكم القانون ، ويحترم حقوق شعبه ، ويوفر له الأمن، ويكون شريكا في الحرب على الإرهاب .

وبوصول القوات الأمريكية إلى العراق ، أطلقت الحكومة العراقية بتاريخ الرابع عشر من شباط ٢٠٠٧ عملية عسكرية كبرى في بغداد تحت تسمية (خطة فرض القانون) التي حققت نتائج ملموسة على الأرض ، أفرزت تحسنا أمنيا كبيرا ، ورافق ذلك هبة شعبية ابتدأت في محافظة الأنبار لتنعكس في بقية المحافظات (الساخنة) بما عرف بـ (مجالس الصحوة) التي لاقت دعما وإسنادا أمريكيا واضحا ، أسهم في تراجع كبير للقاعدة في العراق ، وفي هذا المجال يعلق أحد القادة الأمريكان في العراق بالقول " نجحنا في خصخصة الحرب ضد القاعدة في العراق " .

وجاء إعلان (مبادئ العلاقة طويلة الأمد بين العراق والولايات المتحدة) بتاريخ ٢٦ آب ٢٠٠٧ ليؤشر المقاربة الأخيرة من المرحلة النهائية (في الأمد الطويل) من المبادئ الهادية للسياسة الأمريكية في ما بعد الحرب على العراق ، والتي تهدف إلى إصدار قرار من مجلس الأمن يقر بإتمام العملية ، ويتيح عودة العراق للدخول في المجتمع الدولي .

ونرى أن الإستراتيجية الأمريكية في العراق خلال المدة (٢٠٠٣-٢٠٠٧) قد سارت في خطين متوازيين يكمل أحدهم الآخر للوصول إلى الأهداف الكبرى التي تم التخطيط إليها منذ أمد بعيد ، وضمن هذين الخطين اجتهدت الإستراتيجية الأمريكية لمسك العصا من الوسط في تعاملها مع الإرهابيين والحكومة العراقية ، وذلك لخلق حالة من التوازن وفقا لمتبنياتها الإستراتيجية في العراق.

وكان أبرز سمات تلك الإستراتيجية في خطها الأول حل مؤسسات الدولة العراقية والإجهاز عليها وإثارة ونشر الفوضى الشاملة وتبني سياسة الإذلال والتركيع والإحباط وإشاعة اليأس والإفساد وفتح الحدود وغض النظر عن دخول الإرهابيين والعنف الطائفي والتهجير والهجرة وقتل الكفايات واستباحة المحرمات والمقدسات وتدمير التراث وشواخص التاريخ ، مما جعل حياة المواطن العراقي (المتعبة أصلا) تعج بالكثير من المعاناة والألم والقلق . وفي الجانب الثاني العمل بكل تؤدة وإحكام لتحقيق الأهداف المطلوبة ضمن مراحل متعاقبة ، بعيدا عن اهتمام المواطن العراقي ، بعد أن نجحت في إبعاده وإشغاله في همومه ومآسيه المتزايدة ، في ربطها الحاذق للمقاومة بالإرهاب ، وتقنين ذلك دوليا من خلال قرارات مجلس الأمن .

لقد شهدت الساحة الداخلية والإقليمية والدولية متغيرات كبرى خلال سنوات الاحتلال الأمريكي للعراق أهمها :

١ -تلاشي مفهوم الدولة القومية في الشرق الأوسط وأوروبا ، تدعيما للموقف الأمريكي الداعي لإزالة مخلفات الحرب العالمية الأولى والحدود التي رسمتها بريطانيا وفرنسا .

٢ -تغييرات ديموغرافية واسعة في العراق كادت تمهد للحرب الأهلية والتقسيم .

٣ -إجراء انتخابات نيابية في العراق ، وإقرار دستور دائم للعراق الاتحادي .

٤ -طغيان مفهوم (الديمقراطية التوافقية) غير الملتزمة على الساحة السياسية العراقية ، مما أربك عمل الدولة وشل مجلس النواب . وكان ذلك انعكاسا واضحا لتركيبة الأحزاب

السياسية التي تتصدر المشهد السياسي كونها أحزاباً ممثلة لطيف واحد .
٥ -استمرار وتعمق عزلة العراق عن محيطه العربي ، خاصة في مجال التمثيل الدبلوماسي في بغداد .
٦ -عزلة سورية ، وانكفاء الدور الإقليمي لمصر ، وضياع ثقل القرار العربي ، وتشكل محور جديد ممثلا بـ (السعودية ، ومصر ، والأردن) .
٧ -انفراط عقد التوازن الإقليمي والداخلي في لبنان .
٨ -تلاشي الطابع الرومانسي للقضية الفلسطينية وتحولها إلى ساحة صراع داخلي .
٩ -قصور عمل مؤسسة النظام العربي الرسمي ممثلة بالجامعة العربية .
١٠ - تنامي ظاهرة الإسلاموفبيا في أوروبا وأمريكا .
١١ - تحول العراق إلى ساحة صراع وقتال دامية بين قوى مخابراتية إقليمية وعالمية واستباحته من قوات المرتزقة والإرهاب .
١٢ - صعود النفوذ الإقليمي لإيران ، واستعادة تبنيه للرؤية الثورية ، وقد نجحت الإستراتيجية الأمريكية كثيرا في استعداء شرائح المجتمع العراقي والدولي ضد إيران . من أجل أن يكون العراق ساحة متقدمة لتصفية الحسابات بين الولايات المتحدة وإيران . وهنا يبرز سؤال جوهري مقابل ماذا خدمت المدافع الإمريكية خصومها الإيرانيين بالتخلص من ثلاثة من ألد أعدائها في أقل من سنتين وهم : طالبان وصدام ومجاهدي خلق !!
١٣ - انتهاء المعارضة الروسية – الفرنسية – الألمانية للدور الأمريكي في العراق ، ومجيء حكومات جديدة في ألمانيا وفرنسا تدور في الفلك الأمريكي .
١٤ - تقلص التحالف الدولي في العراق من (٤٠) دولة في بداية الغزو ، إلى (٢٦) دولة حاليا .

المبحث الرابع : الدروس المستنبطة

بعد مرور كل هذه السنوات العجاف من حرب وحصار واحتلال ، أضحى العراق بحق الكارثة الإنسانية الأكبر في العالم والتاريخ ، ولا يزال مصيره مرهونا باحتمالات قاسية شتى ، بعد أن تعومت سيادته ، وشق الدم نهرا ثالثا في أرض النهرين ، فأصبح دولة أقرب ما تكون إلى الدولة الفاشلة [١]:

[١] **الدولة الفاشلة هي الدولة الوسط بين مرحلة الضعف ومرحلة الانهيار ، وهي دولة غير قادرة على توصيل سلع إيجابية لشعبها (خدمات الأمن والتعليم والصحة والفرص الاقتصادية والرقابة البيئية وإطار قانوني للنظام العام ونظام قضائي لإدارتها ومتطلبات البنية الأساسية من طرق ومواصلات ، ويعد الأمن أكثر السلع السياسية أهمية لحياة الناس) . والدولة الفاشلة متوترة وتشهد صراعا سياسيا ، وهي تهدد الاستقرار والسلم العالميين .**

أولا : إن الإستراتيجية الأمريكية في العراق لم تميز بين النظام والشعب ، فقد استهدفت الشعب كما استهدفت النظام ، ولا يملك المراقب إلا أن يقول إنها استهدفت تدمير العراق ماضيا وحاضرا ومستقبلا . وهذا ما هدد به (جيمس بيكر) وزير الخارجية الأمريكي الأسبق أثناء مباحثاته مع طارق عزيز في جنيف (كانون الثاني ١٩٩١) عندما هدد بإرجاع العراق إلى عصر ما قبل الصناعة .

ثانيا : لقد تأجلت الإطاحة بنظام صدام كل تلك السنوات لأن تطورات المنطقة محسوبة بدقة ، ولأن معظم خيوطها ترتبط ببؤرة مركزية حيث الصراع العربي الصهيوني .

ثالثا : إن الأهداف الإستراتيجية الأمريكية في العراق ، هي من المحاور التي يتفق عليها كلا الحزبين الأمريكيين ، حيث أن للولايات المتحدة إستراتيجيتها المتعلقة بالعراق بغض النظر عن تغير الإدارة التنفيذية في البيت الأبيض .

رابعا : إن إستراتيجية الهيمنة المطلقة التي تنتهجها الإدارة الأمريكية الحالية واتخذت من الساحة العراقية أنموذجا لها هي خير مثال لتماهي القوة المطلقة مع الفكر الامبريالي المتعجرف للصهيونية المسيحية المتمثلة باليمين المحافظ الجديد ، الذي ينظر بازدراء إلى كل الإرث المتمدن للعلاقات الدولية وشكل الدولة القومية منذ معاهدة وستفاليا ١٦٤٨ وصولا إلى الأمم المتحدة كونه يمثل الماضي وأوروبا العجوز .

خامسا : أن من أبرز تداعيات الحرب في العراق على الساحة الدولية هي فقدان مصداقية الاجهزة الاستخبارتية الامريكية وعد الاكتراث بالمصداقية هي سمة بارزة لإستراتيجية الهيمنة ، حسب ما يعبر عنها (كيسنجر) بالقول :" إن العلاقات الدولية أمر يتصل بالقوة ومصالح الدول أكثر منها بالمشاعر والأخلاقيات " .

سادسا : إن الإستراتيجية الأمريكية في العراق قد عمقت من سلبية علاقات العراق مع جيرانه ، فهذه الدول تنظر الآن بريبة إلى العراق رغم كل محاولات الضغط الأمريكي عليها ، فهي تتخوف من تداعيات عابرة للحدود ، ولذلك فهي تحجم عن تقديم أي دعم جدي أو مساعدة للعراق رغم كثرة المؤتمرات والوعود .

سابعا : إن الإستراتيجية الأمريكية في هذه المرحلة قد ركزت على بناء السلطة (المقيدة) وأهملت عن قصد بناء الدولة .

ثامنا : إن الفوضى التي اعتمدتها الإستراتيجية الأمريكية خلال هذه المرحلة والتي أسمتها (الفوضى الخلاقة) ، كانت إلى حد بعيد فوضى موجهة ومسيطر عليها ، ولا تخرج عن حدود الأهداف المرسومة لها .

تاسعا : استخدمت الولايات المتحدة خلال حقبة الحرب الباردة كثيرا من الدول لتقوم نيابة عنها بالحرب ، أما في احتلالها للعراق فكان بعض من أسباب الحرب هو قيام الولايات المتحدة بشنها نيابة عن الآخرين .

عاشرا : إن دعم الإستراتيجية الأمريكية واعتمادها مؤخرا على مجالس الصحوة التي تتكون في الغالب من طيف واحد يأتي برغم النجاحات المتحققة في ذات السياق الذي يهدف إلى إضعاف الدولة . وقد يشكل مرحلة خطرة في تحويل العنف المنفلت إلى عنف منظم ، أو التمهيد لحرب أهلية في المستقبل من خلال إعادة التوازن للمكونات الرئيسة في المجتمع العراقي .

حادي عشر : ومن حيث العلاقة مع الأمم المتحدة فيلاحظ بوضوح ان الولايات المتحدة التي نجحت في توظيف قرارات مجلس الأمن لخدمة أهدافها وتدويل احتلالها للعراق ، فإن تلك القرارات قد أغفلت عن عمد الإشارة إلى حق الشعب العراقي في مقاومة الاحتلال سواء بالطرق السلمية أو باستخدام القوة . وبذلك فإن العراق قد أصبح :

١ -دولة خاضعة لاحتلال عسكري اتخذ طابعا تعاهديا .

٢ -إن العراق دولة ذات سيادة شكلية (معومة) لتجرده من البنى المؤسسية للسيادة واستمرار خضوعه للفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة .

ثاني عشر : جاء إعلان مبادئ العلاقة طويلة الأمد بين العراق والولايات المتحدة في السادس والعشرين من آب ٢٠٠٧ ليؤشر طي صفحة جديدة تتمثل في توقيع اتفاقية أو معاهدة طويلة الأمد بين الحكومتين ، يتم من خلالها – بين أمور أخرى – تمركز القوات الأمريكية في قواعد عسكرية ، وقيام الحكومة العراقية بمهمة حفظ الأمن والنظام الداخلي ، مما يجنب القوات الأمريكية مزيدا من الخسائر ، وهذا ما اتضحت معالمه في ما يطلق عليه (تسلم الملف الأمني) .

من خلال هذا الاستعراض للإستراتيجية الأمريكية في العراق يتضح مدى خطل الرأي القائل بأن الولايات المتحدة دخلت العراق بلا خطة [١]، أو الرأي الآخر الذي يقول بأنها ارتكبت سلسلة من الأخطاء في العراق . إن الذي يقول بالرأي الأخير ينطلق من حيث لا يدري من فرضية الإيمان بأن الاحتلال الأمريكي جاء لمصلحة العراق . وإن تلك الأخطاء والتي هي بالطبع تقع في ضد مصلحة العراق ، جاءت بصورة عفوية غير مقصودة ولم يخطط لها . وهذا هو العكس تماما مما يقره ويدركه العقل وتأمر به الشرائع السماوية والوضعية . وهذا هو ديدن الاحتلال عبر التاريخ حيث لا يمكن أن يكون الاحتلال أبدا إلا ضد مصلحة الشعوب . أما (الأخطاء) فهي الوجه الآخر للتعبير عن الأعمال التي تصب في مصلحة المحتل .

الآن ، وبعد أن عادت الكويت إلى حدودها السابقة بل وتمددت أيضا داخل العراق برا وبحرا ، وبعد أن أصبح النظام السابق جزءا من الماضي ، ودفع شعب العراق من دمه وماله وبنيته بما لا يمكن وصفه ، فإنه من غير المتأخر الالتفات إلى شيء من الحكمة ، فالأخطر من المشاكل ربما لم يتجسد بعد ، وإنه من عظيم الحكمة الاستماع ولو متأخرا إلى صوت العراقيين ، حيث إن ما جرى في العراق كان زلزالا مدمرا ، وإن الموضوع إن لم يعالج بحكمة ستعقبه هزات ارتدادية تشمل المنطقة والعالم ، ولو بعد حين :

١ - إن العراقيين شعب حضاري تمتد جذوره في التاريخ أكثر من أي شعب آخر ، وهذا رتب عليه استحقاقات كثيرة ، منها موقعه في المقدمة من الدول التي ترنو إلى الاستقلال الكامل والحرية والازدهار والتمسك بالقانون ، وهو يدرك أن الولايات المتحدة كونها الدولة الأعظم حاليا قادرة على تحقيق الكثير من خلال صداقتها واحترامها للعراق .

٢ - إن قرارات مجلس الأمن ذات العلاقة لم تعد ملبية للحاجة التي آل إليها الوضع في العراق ، ولانتهاء كل المبررات التي أدت إلى ذلك ، فإن مجلس الأمن وانسجاما مع الميثاق مدعو

---

[١] **ينظر : أنوني كوردسمان ، أعراض الحرب والسلام ، مجلة وجهات نظر ، القاهرة ، العدد ٤٩ ، شباط ٢٠٠٣ ؛ وكذلك : مبادئ هادية لسياسة أمريكية في عراق ما بعد الحرب ، مجلس العلاقات الخارجية ، في : العراق الغزو-الاحتلال-المقاومة ، مصدر سابق ، ص ٢٠٥-٢٢٢ .**

لإصدار قرار جديد يضمن خروج العراق من مظلة الفصل السابع ، وعودته إلى المجتمع الدولي كدولة كاملة السيادة ، بعيدا عن صيغ الوصاية والمعاهدات المقيدة .

٣ - إن ثبوت عدم صحة الأسباب المعلنة لشن الحرب على العراق ، يلزم الحكومة العراقية أن تسعى لدى الأمم المتحدة والمحافل الدولية لإصدار قرار ملزم من مجلس الأمن لتعويض العراق عن كل ما عاناه وفقده ، بما فيها التعويضات الناجمة عن ذلك. ان الأسس والمعايير التي يمكن الاستناد عليها في هكذا قرار ، تعتمد على ما يأتي:

(أ) ميثاق الأمم المتحدة .

(ب) الإعلان العالمي لحقوق الإنسان .

(ت) ما أقره (كوفي عنان) الأمين العام السابق للأمم المتحدة بأن الحرب الأخيرة ضد العراق لم تكن شرعية ، ولم تستند على قرار أمم لأجازتها .

(ث) تصريحات (كولن باول) وزير الخارجية الأمريكي السابق المتكررة بعدم صحة المعلومات التي بررت شن الحرب على العراق .

(ج) مطالبة الكنيسة الأنجليكانية البريطانية بأن تقدم بريطانيا اعتذارا للشعب العراقي عن شن الحرب على العراق .

(ح) إن الحرب الوقائية أو الضربات الاستباقية التي اعتمدتها الولايات المتحدة ضد العراق ، هي نفسها شكل الحرب التي أدانتها محاكمات نورمبرغ عقب الحرب العالمية الثانية ، وعدّتها بمثابة الجريمة المطلقة ، علاوة على استخدام الولايات المتحدة للقوة المفرطة والأسلحة المحرمة دوليا .

(خ) إن القوات الأمريكية البريطانية المحتلة للعراق لم تلتزم بقواعد القانون الدولي الإنساني:

- قواعد لاهاي لسنة ١٩٠٧ .
- اتفاقيات جنيف لسنة ١٩٤٩ .
- البروتوكول الإضافي الأول لسنة ١٩٧٧ (الملحق باتفاقيات جنيف) .

الخاتمة :

لقد شكل الاحتلال الأمريكي للعراق حملة همجية منظمة هي الأعنف والأكثر دموية، أن انتحار الحكمة السياسية ، وغبار التضليل ودخان القوة ، لا يمكن لها أن تحجب حقائق دورة التاريخ ، كما رسمها ابن خلدون وتوينبي وبول كندي ، واستنادا إلى بديهية (أن الانحدار يبدأ عند الوصول إلى القمة) فإن الولايات المتحدة باحتلالها العراق ، ارتكبت الخطأ القاتل الذي سيعقبه أسرع انهيار لإمبراطورية في التاريخ .

إن المشروع الإمبريالي الأمريكي كما نصت عليه إستراتيجية الأمن القومي الأمريكي (إستراتجية الهيمنة) سيقود إلى أربع عواقب وخيمة رئيسة هي [١]:

١ - حالة حرب مستمرة ستقود إلى المزيد من الأعمال (الإرهابية) ضد الأمريكان أينما وجدوا ، وإلى مزيد من الاعتماد على الأسلحة النووية بين الدول الأصغر .

[١] **شامبرز جونسون ، أحزان الإمبراطورية ... النزعة العسكرية ونهاية الجمهورية ، دار متروبوليتان ، نيويورك ، ٢٠٠٤ .**

٢ - فقدان الديمقراطية والحقوق الدستورية في الولايات المتحدة ، مع طغيان السلطة التنفيذية (الرئاسة) على السلطة التشريعية .
٣ - استبدال الحقيقة بالدعاية المغرضة وتزوير الحقائق وتمجيد الحرب والقوة العسكرية .
٤ - الإفلاس الذي ينتظر الولايات المتحدة مع تسخير قدراتها ومواردها الاقتصادية لتمويل مشاريعها العسكرية الكبيرة ، على حساب الصحة والتعليم والأمن الداخلي .